

ابن كثير (عماد الدين، أبو الفداء)

إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير ابن زرع

القرشي البصري دمشقي الشافعي

الباحثة نبيلة القوصي

إخوتي القراء:

من أرض غنية بإرثها العلمي الديني، نناديكم لنحكي لكم سيرة علماء مضوا و قد أدوا الأمانة، و نحن على آثارهم مقتدون بجزر، و بمنهج النبوة المحمدية متبعون، هلموا نستمع و ننصت معاً : عالم محدث و مفسر و فقيه اشتهر باسم "ابن كثير" ... و من منا لا يعرف هذا الاسم ؟ في كل مكتبة منزلية تقريباً هناك كتاب (تفسير ابن كثير)، فمن هو و كيف ترعرع و نشأ ؟ و كيف جمع هذه السمة العلمية التي اكتسبها كمحدث و مفسر و فقيه ؟

اسمه و نشأته:

إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير ابن زرع البصري الدمشقي الشافعي، الشهير بابن كثير، أبو الفداء عماد الدين، ولد بجندل من أعمال بصرى، عام 700 هجري و في رواية 701 هجري، توفي والده و هو بالرابعة فانتقل مع أخيه كمال الدين عبد الوهاب إلى دمشق، و قام بتنشأته أحسن تنشأة علمية دينية، فبدأ بحفظ القرآن الكريم، و قد كان والده خطيب بلدة مجدل، فحفظ منذ الصغر من الناس أقوال والده الماثورة، و تأثر من أخيه المقيم بالعلم الشرعي، فأخذ منه أيضاً ما كان سبباً لنشأته العلمية الدينية.

حياته العلمية:

عدما ارتحل في السابعة من عمره مع أخيه لدمشق بدأت شخصيته العلمية القوية تبلور، و قد قال بنفسه يصف أخاه أنه كان الرفيق الشفوق الذي اشتغلت على يديه في طلب العلم، خاصة بعد أن استقر بدمشق و التقى بعلمائها الأجلاء و صار واحداً منهم.

مضى ابن كثير في حياته و هو يجمع بين طلب العلم و التدريس و التأليف، و خطيباً داعية إلى الله، تولى مشيخة أم الصالح بعد موت الذهبي و السبكي، و تولى مشيخة دار الحديث الأشرفية، و تولى العديد من المدارس العلمية الهامة في ذاك العصر، و قال عنه الذهبي : فقيه متفنن، محدث متقن، مفسر نقال له خصوصية.

شيوخه:

أخوه عبد الوهاب بن عمر بن كثير كمال الدين، و برهان الدين الفزاري، و كمال الدين ابن قاضي شهبه، و صاهر أبا الحجاج المزني و أخذ عنه ثم أقبل على الحديث الشريف، و أخذ الكثير عن ابن تيمية، و أقبل على حفظ المتون و معرفة الأسانيد و العلل و الرجال و التاريخ حتى برع في ذلك و هو شاب.

تلاميذه:

ابنه محمد بن إسماعيل بن كثير، سعد الدين النووي، و علاء الدين الدين بن حجي الشافعي، محمد بن أبي محمد بن الجزري، شيخ علم القراءات، الإمام الزيلعي، و الزركشي و غيرهم.

مؤلفاته:

صنف في صغره كتاب (الأحكام على أبواب التنبيه)، و صنف في التاريخ (البداية و النهاية)، و تفسير القرآن الكريم بمنهج فريد اشتهر به، و صنف في جمع المسانيد العشرة، و اختصر تهذيب الكمال، و سماه (التكميل)، كتاب طبقات الشافعية، الباعث الحثيث في شرح اختصار علوم الحديث، و هو اختصار لمقدمة ابن صلاح، و غيرها من المؤلفات رحمه الله.

أقوال العلماء فيه:

قال الذهبي: " الإمام الفقيه المحدث البار، درس الفقه و أفتى، محدث متقن، و له تصانيف مفيدة".
و قال عنه السيوطي: " الإمام المحدث الحافظ، ذو الفضائل، عماد الدين، و له التفسير الذي لم يؤلف على نمطه مثله".

وقال ابن حبيب: " إمام ذوي تسبيح و تهليل، و زعيم أرباب التأويل، سمع و جمع و صنف، وانتهت إليه رئاسة التاريخ و الحديث و التفسير".

وفاته:

توفي ابن كثير - رحمه الله - سنة 774 هجري، و كان قد أضر في أواخر حياته، و دُفن عند شيخه ابن تيمية بمقابر الصوفية، بوصية منه رحمه الله عز و جل.

جعلنا المولى و إياكم من خيرة الخلق المستخلفين بمنهج النبوة المحمدي.



المصادر و المراجع:

- . طبقات الشافعية / لابن شعبة ت: 851 هجري
- . الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة / لابن حجر العسقلاني ت: 852 هجري
- . شذرات الذهب / لابن العماد ت: 1089 هجري
- . طبقات الشافعية / لابن قاضي شعبة
- . معجم المؤلفين / لعمر رضا كحالة
- . الحوليات الأثرية / للجمهورية العربية السورية عدد 35